دكالة بين الشدة والرخاء

محمد حجاج الطويل

كلية الآداب، بن امسيك، الدار البيضاء

اهتمت كثير من الدراسات والأبحاث في مجال دكالة الطبيعي ورصدت محاولات الإنسان لاستغلاله في نقط متعددة منذ ما قبل التاريخ وإلى اليوم[1]، وما زال الموضوع مطروحا على أجيال من الباحثين ويتطلب مجهودات أكبر من التي بذلت حتى الآن على جميع المستويات ومن جهات عديدة ومتدخلين من كثير من الاختصاصات، فدكالة التي تعتبر اليوم من أغنى المناطق الفلاحية في المغرب وتساهم بنصيب وافر في تزويد الأسواق المغربية بالمنتجات الفلاحية المتنوعة كانت نسبيا كذلك منذ التاريخ الوسيط مع اختلاف في الوسائل والتوجهات، فدكالة التي أشرنا إليها اليوم هي وليدة المشاريع السقوية العصرية اعتمادا على السدود المقامة على وادي أم الربيع والتي بدئ العمل بها منذ الثلاثينيات من القرن الماضي أما دكالة الوسيطية فلم تكن تعتمد بالدرجة الأولى إلا على فلاحة "البور" ومياه بعض الآبار والينابيع أما النهران الكبيران اللذان يحدانها من الشمال والجنوب فلم تستفد منهما[2].

جاء في المصادر الوسطية الأولى والتي كتبت اعتمادا على تقارير إدارية أو رواية التجار والرحالة[3] أن بلاد المغرب كانت غنية بمنتجاتها الفلاحية نباتية وحيوانية، وأن مراكز تبادل هذه المواد كانت تعرف نشاطا دائبا خلال العصر الوسطي، أما عن المنطقة التي نحن بصددها والتي تدخلها تلك المصادر ضمن حدود "سوس" والبعض يجعلها ضمن "سوس الأدنى" فيقول عنها التاجر البغدادي ابن حوقل : "..ومن باداني

---

1 راجع الموضوع- على سبيل المثال فقط – في تاريخ إقليم آسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة من منشورات :"مؤسسة دكالة-عبدة" للثقافة والتنمية، الدار البيضاء، 2000.

2 راجع الخرائط الطبوغرافية لدكالة.

3 راجع ملخصا عنها في كتاب حاج صادق "صفة المغرب وأوروبا إلى القرن 3هـ/9م..." الجزائر 1949. ابن حوقل "صورة الأرض ليدن 1938، البكري : "المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب" الجزائر، 1911.

المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، ص. 41-51.

سجلماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفونه والشعير ويزرعونه والتمور والطيبات وفي أعراضهم أصحاب البرانس المقيمون بين السوس وأغمات وفاس ولهم لوازم على المجتازين.... وجميعهم يبيحون البلاد للمراعي والزرع والمياه لورود الإبل والماشية..."[4].

أول استنتاج يمكن الخروج به من قراءة النص أن المجال المتحدث عنه كان مجالا شاسعا وشبه فارغ وأنه كان وفير الخيرات الطبيعية ويعتبر مجالا للمصامدة بإجماع أغلبية المصادر، إلا ان هؤلاء لم يكونوا قادرين على استغلاله لسبب من الأسباب مثل : سيادة حياة الانتجاع، لذلك أباحوا استغلاله لغيرهم على أن هذا الكرم المصمودي لم يكن دائما أومطلقا بل -كان في تقديري- في فترات الرخاء والخصب الزائد وكان محدودا في بعض فصول السنة فالمصامدة يغادرون مشاتيهم في الهضاب والسهول (أزغار) أواخر فصل الربيع وبداية فصل الصيف، ولا يعودون إليها من المصايف الجبلية (ألمو أو تيشكا) إلا أواخر فصل الخريف وبداية فصل الشتاء وما بين الرحلتين يترك المجال مباحا لغيرهم من القبائل، وهذا ما يفسر وجود بطون وأفخاذ من قبائل أخرى غير مصمودية ساكنتهم في جهات كثيرة من المغرب ومنها في دكالة صنهاجة وكتامة.

جاء في كتاب بهجة الناظرين وهو يتحدث عن كرامات أبي عبد الله أمغار : "...والذي منه من أهل المغرب من معاصريه فاض الصلاح ولاحت على المصامدة بتعلقهم ببركته أنواع الفلاح وسعدت جدالة بل جميع صنهاجة بخدمته"[5]. من الإشارات القوية التي يضيفها النص إلى موضوعنا ويعزز ما ذهبنا إليه أن قبيلة جدالة وهي متزعمة صنهاجة كانت تستأثر بجزء من مجال دكالة وأن هذا الجزء كان وفير الخيرات من ماء ومرعى وكانت تلك القبيلة ترتاده قبل أن تستقر به نهائيا في العهد المرابطي[6]. أما مواطن صنهاجة الصحراء الأصلية فهي تمتد من جنوب سلسلة الأطلس الكبير والصغير إلى نهر السينغال أي أنها تسكن الجزء الشمالي الغربي من الصحراء

[4] ابن حوقل م.س.ص. صفحة 99 و100.

[5] عبد العظيم الأزموري :"بهجة الناظرين وأنس الحاضرين"، مرقون بخزانة كلية الآداب بالرباط- 1986/1985. ص :6.

[6] المصدر نفسه، ص. 47-50.

الكبرى وتتقاسم ذلك المجال حسب ما جاء في المصادر على الشكل التالي :

- قبيلة جدالة في الجزء الذي يلي البحر أي انها تحتل الشريط الساحلي للمحيط الأطلنتيكي.
- لمتونة تلي القبيلة الأولى شرقا.
- قبيلة امسوفة تحتل وسط الصحراء الكبرى مما يلي لمتونة إلى الشرق.

والملاحظ أن جدالة حتى في إنتاجها بقيت ملتزمة بالساحل وكانت تصل إلى دكالة وتحديدا إلى المنطقة الشمالية الغربية ولا تغادرها عائدة إلى موطنها الأصلي إلا في أواخر فصل الخريف وبداية فصل الشتاء. (عكس الانتجاع المصمودي) وقد دأبت على ذلك طيلة القرنين الثالث والرابع لتستقر به نهائيا في القرن الخامس الهجري[7]. ولعل المعرفة المسبقة لصنهاجة الصحراء وخاصة جدالة بالمجال الدكالي وبكل سوس الأقصى والأوسط والأدنى كان من بين الأسباب القوية التي جعلت المرابطين بقيادة لمتونة[8] يتوسعون شمالا ويكتسحون المغرب بسرعة كبيرة وبدون مقاومة تذكر[9].

إنتجاع قبيلة جدالة للمجال الدكالي لم يكن في بدايته نتيجة صراع أو غلبة وإنما عن اتفاق وتراض. لكن استقرارهم به ودخولهم على رأس المرابطين كان غزوا مخططا له وصراعا وغلبة نتج عنه اضطراب في استغلال المجال واقتلاع ساكنته الأصلية فالمصامدة استطاعوا تطوير استغلال مجالهم وبدأت الكثير من القبائل والبطون تستقل وتتعاطى للنشاط الزراعي وتربية المواشي إلى جانب الرعي، وبدأت عملية التخلي التدريجي عن النجعة التقليدية أو الرحلة بين "ألمو" أو "تيشكا" و"أزغار".

---

[7] بعض الدارسين الأجانب استنتج من خلال قراءاته استنتاجا واجتهادا غريبا في تفسير كلمة دكالة، فقال أنها محرفة عن كدالة والواقع أن كدالة كتبت كذلك لغياب حرف G اللاتيني في العربية، وكتابتها الصحيحة جدالة بقراءة الجيم باللهجة الدارجة المصرية وحيث ان الكاف في كلمة دكالة أصلية فلا يمكن أن تكتب دجالة Douggala .

[8] جاء في البيان المغرب9/4 "...وكان أمير لمتونة يومئذ يحيي ابن عمر ... فرحل إليه عبد الله بن ياسين فتلقاه بأحسن القبول..." أي أن الدعوة تحولت من جدالة صاحبة المبادرة إلى لمتونة". البيان المغرب، بيروت، 1983.

[9] راجع أخبار التوسع المرابطي، ملخصة عن المصادر الأخرى عند الناصري في كتابه :"الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" ج. 2.

أما السكان الجدد والذين كانوا ينتجعون المجال من قبل فلم يكن يهمهم منه إلا الماء والمرعى لإبلهم ومواشيهم ودوابهم لكنهم كانوا في حاجة إلى الحبوب التي أصبح اعتمادهم عليها في غذائهم وعلف مواشيهم ودوابهم يتزايد، وقد عزز وجودهم الصنهاجيين المستقرين قبلهم في الزاوية الشمالية الغربية من دكالة والمعروفون بصنهاجة أزمور، لكن انتقالهم النهائي للمنطقة واستقرارهم بها كان يتطلب وقتا طويلا واجيالا من الأبناء والحفدة حتى يتم التكيف مع المجال واستيعاب معطياته الطبيعية، وهذا ما وقع بالفعل بعد هجرة الأمغاريين واستقرارهم جنوب آزمور فقد استصلحوا الأراضي وتعاطوا للزراعة حول ساحل تيط[10]، وهذا ما عناه نص "بهجة الناظرين" : "..وسعدت جدالة بل جميع صنهاجة بخدمته..." وقد عول المرابطون وهم يحكمون المغرب ويفكرون في بناء عاصمتهم عولوا على دكالة في تزويد المدينة الكبيرة بما تحتاجه من حبوب لتغذية ساكنة متزايدة باستمرار وعلف لدواب في تكاثر سريع لذلك جاء في تقرير اللجنة التي كلفت باختيار مكان بناء مدينة مراكش ما يلي :

"...قد نظرنا لك موضع صحراء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا تنبت إلا السدر والحنظل فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها ودكالة فدانها، وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها..."[11].

هذه اللجنة التي قدمت تقريرها ونصائحها للأمير المرابطي كانت تتكون من أشياخ المصامدة أي من أصحاب المجال والعارفين بخباياه ومعطياته، فإنتاج دكالة من الحبوب لم يكن وليد اللحظة ـ لحظة تأسيس مراكش ـ ولا وليد الصدفة بل كانت دكالة قد قطعت أشواطا في زراعة الحبوب واختيار الموقع، كان اختيارا متبصرا وينم عن خبرة طويلة، فأقرب سهل زراعي لمراكش هو سهل دكالة، وهو الوحيد القادر على تلبية الحاجيات المتزايدة لمدينة سرعان ما بلغت ساكنتها نصف مليون نسمة، مما يعطينا فكرة عن حجم الاستهلاك والنشاط الفلاحي المزدهر الذي عرفته دكالة خلال العهد المرابطي (480/1088-541/1147)[12]،

10 بهجة الناظرين م.س.

11 ابن عذاري : لبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1983.ج4، ص. 19.

12 لم ترد في المصادر إشارات واضحة على أن تامسنا خضعت فعلا للمرابطين، فالعداء مستحكم بينهم وبين البرغواطيين الذين لم يخضعوا لهم رغم هزيمتهم في بعض المعارك فيبقى سهل دكالة هو المؤهل لتموين العاصمة مراكش.

ويرجعونا إلى النصوص التاريخية التي أشارت إلى الشدائد من قحط ومجاعات وأوبئة[13] ومقارنتها ببعض الدراسات والأبحاث عن تاريخ الماء بالمغرب[14]، يظهر ان المغرب في العهد المرابطي عرف مناخا ملائما وعرفت دكالة فترة رخاء وازدهار فلاحي فحققت فائضا من الإنتاج تم تسويقه محليا ووطنيا وخارجيا[15]، ومما يؤكد أهميته إنتاج دكالة الفلاحي وخاصة في مادة الحبوب أن المرابطين ـــ وهم في عنفوان قوتهم ـــ لما داهمهم الموحدون ودخلوا معهم في صراع قوي ومرير حول امتلاك السلطة وحكم المغرب، كانت دكالة من بين الأهداف الإستراتيجية التي لم ينتبه إليها خليفة ابن تومرت عبد المومن وهويطبق خطته الحربية في الصراع الموحدي المرابطي، ذلك انه قرر أن يفتح الأطراف وغزوالمناطق النائية قبل مهاجمة العاصمة مراكش فقد سارع بعد توليه السلطة والقيادة إلى غزو جبال فازاز في المغرب الأقصى وجبال الونشريس في المغرب الأوسط قصد التزود بالخيول، فقد اشتهرت بإنتاج وفير وجيد للأنواع الأصيلة لكنه وهويستعد للمرحلة الحاسمة في صراعه وهي محاصرة العاصمة مراكش لم ينتبه إلى أهمية دكالة في الصراع فنبهته بعض القبائل الصنهاجية المستوطنة بضواحي أزمور : "...وأرسلت صنهاجة تيسفرت إلى الخليفة سنبلة وقالــوا له بادر زرع دكالة لا يدخل مراكش ولا تأخذها أبدا..."[16].

إن الارتباط بين فتح مراكش وفلاحة دكالة في هذا النص القصير واضح لأن مراكش كانت تتزود بمؤونتها وعلفها لأكثر من سنة من دكالة، ولا شك أن تنبيه صنهاجة تيسفرت كان في فصل الصيف أي قبل بداية عملية الحصاد. ولاشك ان إرسال سنبلة كان يعني فيما يعنيه "محصول جيد تلك السنة" وأنه إذا ما دخل مراكش فسيكفيَ السكان لمدة طويلة ويجعلهم يصمدون لسنين عديدة، وربما فشل بعد ذلك في فتحها

---

[13] درست الكوارث من مجاعات وقحط وأوبئة اعتمادا على المصادر وجردت حسب تواريخ مدونة وأكثر الدراسات إفادة ما نشر في مجلة : Revue pour l’étude des calamités N°26-27- Genève 1949 années de disette années d’abondance. Extrait par CH.Bois.

[14] الإشارة هنا إلى رسم بياني عن تاريخ الماء اعتمادا على الداندروكولوجيا، (مصورة خاصة).

[15] الشريف الإدريسي المتوفى سنة 548هـ/1154م، أي عاصر الدولة المرابطية وأدرك بداية العهد الموحدي، كتب في :نزهة المشتاق" الطبعة الإيطالية-ج. 3، ص :229-230-231-232-233؛236-237. وغيرها ما يفيد ذلك.

[16] البيدق (أبوبكر الصنهاجي) أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، 1971، ص.63. وفي مصادر اخرى مثل بهجة الناظرين م.س : صنهاجة تصغرت وتاسغرت.

وبالتالي عدم تمكنه من إسقاط الحكم المرابطي، ومعنى ذلك في النهاية أن على عبد المومن أن يسارع إلى احتلال دكالة قبل حصاره مراكش، وهنا يتبارد إلى الذهن أسئلة فرعية لا تخرج بنا عن الموضوع وهي : لماذا تصرفت صنهاجة تيسفرت هكذا ؟ أهي خيانة أم تصدع في الحلف الصنهاجي ؟ هل هي مجاملة لعبد المومن أم هو موقف نابع من دراسة لميزان القوى المائل إلى الموحدين، وبالتالي فالموقف يخدم مصالحها ؟

وكيفما كان الجواب، فإن هؤلاء الصنهاجيين المستقرين حول أزمور منذ فترة تاريخية غير محددة لم يكونوا فلاحين، بل كانوا تجارا وأهم تجاراتهم الحبوب التي كانوا يجنون من وراء تصديرها عبر مرسى أزمور أرباحا طائلة، وأن من شان تعطيل دخولها إلى العاصمة مراكش أن يجعل أثمنتها بخسة، وبالتالي كان موقفهم يضرب في الإتجاهين تحقيق مكاسب مالية وسبق سياسي. لكن العلاقة بين الموحدين وسكان دكالة حتى بعْد نهاية المرابطين لم تكن مبنية على الثقة، إذ تحكم فيها العداء التقليدي بين مصامدة الجبل ومصامدة السهل[17]. لذلك أجهز الموحدون على ساكنة تامسنا ودكالة في عهد الخليفة يعقوب والمنصور (580/1184-595/1199) وأجلوهم عن أراضيهم محدثين بذلك فراغا ديمغرافيا كبيرا وتعطيلا للإنتاج الفلاحي في سهلين اعتبرا منذ القديم مطمورتي المغرب Greniers du Maroc.

حاول الموحدون في عهد الخليفة يعقوب نفسه تدارك النقص الكبير الحاصل في ميدان الإنتاج الفلاحي، بعد القضاء على مصامدة السهل وحلفائهم من صنهاجة وزناتة في تامسنة ودكالة. وخاصة إنتاج الحبوب التي كانت تعتبر في ذلك الوقت مادة استراتيجية في أوقات السلم والحرب، فاستقدم القبائل العربية الهلالية وأنزلها في السهول الداخلية والساحلية، ومنها سهل دكالة، فكان من بين الأهداف التي رمى إليها تحويل هذه القبائل المعتمدة على الرعي والترحال إلى قبائل زراعية مستقرة، لكنه أخطأ التقدير، ذلك أن مثل هذا التحول يتطلب مرور قرون وأجيال عديدة قبل التكيف مع المجال واستيعاب مكوناته ومعطياته والتفاعل معها.

17 راجع عنه مقالنا "مصامدة السهل ومصامدة الجبل"، المنشور ضمن أعمال الأيام الوطنية للجمعية المغربية للبحث التاريخي والمنظمة تحت موضوع :"الجبل في تاريخ المغرب".

عانت دكالة منذئذ من الضعف والوهن، وزاد من ويلاتها تذبذب المناخ الذي عمق من شدائدها، فأصبح الدكاليون يعانون من مشكلتين كبيرتين :

- قلة المياه ومحاولة ادخارها؛
- ادخار الحبوب وخزنها لمواجهة السنوات العجاف.

وقد بدأ الدكاليون خاصة المصامدة في البحث عن الحلول للمشكلتين : "...احتبس المطر وقت نزوله وقلت المياه، فكان الناس يرحلون من بلادهم إلى مواضع المياه، فأمر أبووكيل قومه أن يستقوا من الحفر التي أعدها لماء المطر..."[18] وإذا ما تتبعنا الإشارات إلى المجاعات والأوبئة وباقي الكوارث في المصادر فإننا نلاحظ انتشارها طيلة العصر الوسيط وما بعده إلى القرن العشرين بدون استثناء، لكن توزيعها اختلف من قرن إلى آخر، فأكثر القرون مجاعة وشدائد كانت : ق13 و16 و17 و18 و19. وأقلها القرون : 9 و10 و11 و20، ومعظم المجاعات والشدائد كانت في الغالب بسبب القحط والجراد[19].

وبخصوص دكالة فإن الفترة الممتدة ما بين عهد يعقوب المنصور الموحدي ونهاية الدولة الموحدية (1184/580-1269/668) قد عرفت شدائد عديدة أسباب بعضها طبيعية لكن أغلبها كانت أسبابا بشرية، تلتها فترة من الرخاء والازدهار، ثم فترة أخرى من الشدائد "مجاعات وأوبئة" ابتداء من عهد أبي الحسن المريني (1331/731) إلى عهد السعيد (1374/776) تلتها في العهد الوطاسي فترة من الرخاء والازدهار، أدرك الحسن الوزان جزءا منها فوصف لنا دكالة بدقة، وجرد المعطيات الطبيعية والبشرية وقدم أرقاما وإحصائيات. وأهم ما يمكن استنتاجه من وصفه أن الإنسان الدكالي يمكنه ان يعيش من الالتقاط والصيد والقنص[20].

وعن النشاط الفلاحي وخاصة زراعة الحبوب وتربية المواشي جاء حديثه عن بولعوان : "مدينة صغيرة مبنية على ضفة نهر أم الربيع بها نحو 100 كانون كان يسكنها عدد من النبلاء الكرماء تقع في منتصف الطريق بين فاس ومراكش

[18] ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف، الرباط، 1984، ص.235.
[19] Ch. Bois : Revue pour l'étude des calamités…op cit.
[20] الحسن الوزان : وصف إفريقيا، الرباط، 1980، ج1، ص. 126-127-128.

وقد شيد سكان هذه المدينة بناية من عدة غرف على شكل إسطبل عظيم يستضاف فيه المارون بالمدينة بإكرام على نفقة السكان لأنهم أغنياء جدا بحبوبهم وماشيتهم لكل واحد من السكان 100 زوج من الثيران أوأقل أوأكثر ومحصولاتهم تبلغ حوالي ألف حمل دابة من القمح... ومنهم من تبلغ محصولاتهم الزراعية ثلاثة آلاف حمل والأعراب الذين يشترون هذا القمح ويتزودون منه العام كله"[21].

أهم ما يمكن استنتاجه من النص أن الفلاحة في دكالة بلغت قمة ازدهارها في الفترة التي يصفها الحسن الوزان، وأن عملية حسابية بسيطة ومقارنتها بالمقاييس الحالية في البلاد تبين مدى غنى فلاحة المنطقة[22]، كثير من الدراسات والأبحاث تذهب إلى أن بولعوان هي قرية أم الربيع التي وصفها الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق : "...على واد كبير خرار يجاز بالمراكب فيه ألبان وأسمان ونعم رغدة وحنطة في نهاية الرخص وبها بقول ومزارع القطاني والقطن والكمون ..."[23].

ارتبط تاريخ دكالة مثله مثل باقي السهول بالمعطيات الطبيعية خاصة تقلبات الطقس وتغير المناخ، فعرفت فترات من الرخاء والازدهار بسبب تساقط كميات من الأمطار ملائمة أتاحت استغلال المجال استغلالا واسعا تعدى في غالب الأحيان والأماكن الإقتصاد المعاشي العائلي، وفترات من قلة التساقطات حدت من المساحات المزروعة إلى فترات من البحث عن أماكن يتوفر فيها الماء لشربهم وورود مواشيهم ودوابهم[24]، وهكذا يمكننا رصد قطبي التطرف : الرخاء والشدة عبر تاريخ طويل سواء من خلال كتب الحوليات أو من خلال الدراسات والأبحاث الحديثة، أما الظروف والحالات العادية فقليلا ما تنتبه إليها المصادر فتسجلها.

ظلت العوامل الطبيعية والميل إلى التطرف ما بين الشدة والرخاء تتحكم في تاريخ دكالة ونشاطها الاقتصادي طيلة العصر الوسيط وإلى النصف من القرن العشرين فكان مشكل دكالة الكبير : الماء، فتكوينها

21 المصدر نفسه، ص. 122.

22 معدل ما يحرثه الزوج حسب مقاييس البحر الأبيض المتوسط هو5 هكتارات في اليوم، 100×5 = 500 هـ، المحصولات : ألف حمل دابة وسبق أن عرف بأن الحمل يساوي 700 ليرة إيطالية أي حوالي 237 كلغ : ألف حمل × 237 = 237000 أي حوالي 237 طن وهذا رقم كبير حتى بالمقاييس الحالية

23 الإدريسي، نزهة المشتاق، م.س. ص.237.

24 التادلي : التشوف، م.س.

الجيولوجي جعل صخورها وتربتها شديدة النفاذ ولا تستطيع الاحتفاظ بالمياه وحتى الآبار فإن حفرها يحتاج إلى مصاريف وتكاليف لا يقوى عليها إلا الأغنياء والمخزن بسبب عمقها الكبير، أما المياه السطحية الجارية فقليلة مثل العيون لكنها موجودة في أماكن يصعب استغلال مياهها وأكبرها نهرا أم الربيع وتانسيفت، لكن المنطقة لم تستفد منهما بسبب تعمق مجاريهما وصعوبة استخراج مياههما.

في ظل هذه الظروف والمعطيات الصعبة استطاع الإنسان الدكالي، وخاصة المصامدة، التكيف مع المجال بل وتحدى المعوقات ليتجاوز مشكل الماء فخزنه في حفر وصهاريج تحت الأرض (المطفية) ولا شك انه كان سباقا إلى هذه التقنية بدليل أن المصطلح لم يكن معروفا في القرن السابع الهجري (13م)، ولما زار لسان الدين بن الخطيب المنطقة لاحظ انتشار هذه التقنية وحاول تعريبها فتحدث عن "نطاف" أو"تطاف" ولعلها التسمية القريبة من النطق الأمازيغي في سوس "النطفية" أو"النظفية"، ولاحظ ان مياه النطاف لم تعد تستعمل فقط للشرب بل أقيمت عليها بعض الحدائق الصغيرة[25] والملاحظة نفسها سجلها بعده الحسن الوزان بعد مرور حوالي قرنين من الزمن[26].

عرفت دكالة أواخر العصر الوسيط وبداية التاريخ الحديث فترة ازدهار فلاحي وتجاري غير مسبوقة، وبرجوعنا إلى الحسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" الذي يعتبر بحق قفزة نوعية في الكتابة التاريخية والجغرافية التاريخية، نستطيع تتبع ملامح هذا التطور ورسم صورة واضحة عن المجتمع الدكالي ونشاطه الاقتصادي المعتمد أساسا على الفلاحة والتجارة وخاصة تصدير المواد الفلاحية النباتية والحيوانية ومشتقاتها عن طريق المراسي، وغنى التجار والفلاحين الكبار وأثريائهم، وبعد ذلك طالعتنا المصادر البرتغالية وغيرها بنصوص وأخبار قاتمة ترسم صورة معاكسة لما سبقت الإشارة إليه عن المجاعات والأوبئة وبيع الناس لأبنائهم مقابل حفنة من الحبوب اوسلة من التين، مما يعني في تقديري أن الأمر لم يعد مرتبطا فقط بالمعطيات الطبيعية فالإنسان الدكالي لم يتعلم فقط خزن المياه عند الوفرة بل أيضا تعلم خزن الحبوب وحقق

---

[25] الحسن الوزان : وصف إفريقيا، م.س. ص. 116. ابن الخطيب : نفاضة الجراب، القاهرة، بدون تاريخ والدار البيضاء؛ معيار الاختيار، المحمدية، 1976.

[26] المصادر نفسها.

في هذا الميدان قفزة تقنية لفتت انتباه المؤرخين والرحالة[27]، بل تدخل المعطى البشري ليصبح أكثر قساوة على الإنسان من الطبيعة وتمثل في :

1) الاحتلال البرتغالي لأهم الثغور البحرية الدكالية (أزمور، مازيغان، تيط، قنط، آسفي وغيرها) فاستحوذ البرتغاليون على ثروات المنطقة الفلاحية بشتى الوسائل بالإغراء والشراء وبالغزو والنهب والسلب وفرض الضرائب والغرامات العينية على السكان واصطناع العملاء المحليين وتسليطهم عليهم[28].

2) تدخل المخزن الوطاسي الضعيف لمحاولة إنقاذ السكان وإبقائهم تحت سلطته وترحيلهم إلى أماكن قريبة من العاصمة فاس.

3) غارات القبائل بعضها على بعض مما تسبب في جومن الخوف والاضطراب.

4) تنقل قبائل وبطون في جميع الاتجاهات وفي كل الأوقات مما أحدث جوا من الهلع واقتلع الإنسان الدكالي من ارضه التي هي مصدر عيشه والزج به في متاهات ومجاهل لا طاقة له بها.

واستمرت هذه الحالة طيلة العصر الحديث وخلال القرنين 17 و18 مع استثناءات وتقطع في الزمان والمكان يتفق وظهور سلطة قوية أو حاكم محلي حازم يستطيع فرض الاستقرار وتثبيت الناس في أرضهم، ولم تتغير الوضعية السائدة بصفة جذرية إلا في النصف الثاني من القرن 19، فقد طالعتنا تقارير البعثات العلمية الممهدة للاستعمار الفرنسي للمغرب وكذا المونوغرافيات والرحلات المنشورة في بداية القرن الماضي[29] طالعتنا بأخبار تشير إلى ظروف ومعطيات طبيعية جيدة في دكالة سواء على مستوى النبيت والوحيش أو على مستوى المياه السطحية

---

27 ابن الخطيب : نفاضة الجراب، م.س. ص. 121 و122؛ الحسن الوزان : وصف إفريقيا، م.س. ج1، ص. 121.

28 بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وآزمور، الدارالبيضاء، 1984.؛ حليمة بنكرعي : العنصر العربي والمجال في مغرب 1459-1541 ، الرباط، 2000.

29 نذكر هنا على سبيل المثال :

Villes et tribus du Maroc, archives marocaines archives berbères.

والباطنية أي أن دكالة قد دخلت في فترة أخرى من الرخاء ابتدأت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وواكبها ظهور قيادات محلية قوية ساهمت لاحقا وبشكل كبير في الحد من الاضطرابات وتثبيت السكان في أراضيهم، مما أعطى طفرة جديدة للإنتاج الفلاحي انعكس بصفة خاصة على طبقة الفلاحين الكبار وعلى الأعيان والمخزن وأعوانه المحليين مما جعل بعض المنظرين يتحدثون عن نمط إنتاج خاص بالمغرب سموه "القيادي" نسبة إلى القياد الكبار الذين اعتمد عليهم الاستعمار الفرنسي فيما بعد للتحكم في البوادي ومنها دكالة "القايد سي عيسى العبدي" نموذجا[30].

هذا التذبذب في المعطيات الطبيعية والذي تحكمت فيه التساقطات المطرية، وفي المعطيات البشرية الذي ارتبط بقوة المخزن وضعفه تحكم بشكل كبير في تشكيل المسار التاريخي لدكالة : تعاقب غير منتظم لفترات الشدة والرخاء، فترات جفاف وشدائد متقاربة في العصر الوسيط الأعلى ومتباعدة في وسطه لتتقارب من جديد في العصر الحديث ثم تتباعد في التاريخ المعاصر وما بين التقارب والتباعد تأتي فترات الرخاء والازدهار لكن الاتجاه الحالي والمسجل ابتداء من الستينات من القرن الماضي (أي منذ أزيد من أربعين سنة) يسير نحو تواتر فترات الجفاف ليس في القرن أوالعصر بل من سنة إلى أخرى، ولولا مشاريع الري انطلاقا من نهر أم الربيع لكان الحديث عن دكالة جغرافيا لا يختلف كثيرا عن إقليم طاطا أو زاكورة...

30 راجع عنه تاريخ إقليم آسفي. م.س.